الذباب لا يموت في الطين

بقلم

احمد هاشم الشريف

* فازت هذه القصة بالجائزة الأولى لمجلس الفنون عام ١٩٦٢ .
* وفاز مؤلفها بالجائزة الاولى لعام سنة ١٩٦٣ أيضا .

دخل الى حجرة مكتبه فى الصباح ، الساعة تعدت التاسعة بقليل ، لكنه لا يشعر بأى نشاط كان مرهقا من تأثير سهرة الامس مع زملائه الجدد ، وأعصابه مشدودة كالقوس أقل حركة تكفى لانطلاق السهم . يبدو أن عبده التومرجى لاحظ ذلك ـ وله فى مثل هذه الامور باع طويل ـ فرأى أن السلامة فى الابتعاد عنه وتجنب ثورته ـ لم يجرؤ حتى على الاقتراب منه ليلقى عليه تحية الصباح .

وجلس الى مكتبه بانفعال ، ينفخ بملء فمه فى ضيق ويرسم خطوطا مبهمة بسبابة يده اليمنى على غطاء المكتب ، ويفتش فى الادراج عن شىء ، أى شىء يسلبه فى هذا اليوم ، ويدفع عنه سأم العمل الذى أحاط به فى الايام القليلة الماضية منذ جاء هذا المكان ، رغما عنه . قد يكون فى الامكان دفع الملل مرة أو مرتين ، ويأتى الفرج بعد ذلك ويتحول العسر الى يسر ، وتنقشع السحابة التى تحجب عنه الشمس ، ولكن وقته كله صار على هذا المنوال ، بلا أية جدة أو تغير .

لم يجد شيئا ما ذا قيمة يمكن أن يلفت النظر . درج به أوراق مهملة وروشتات قديمة ، تركها سلفه له ، وآخر به صور لتحاليل طبية واستمارات خالية ، كان اتخذ منها فى الايام السابقة اداة للتسلية ، يكتب فيها اسمه ويبتكر امضاءات جديدة ويرسم صورا لفتيات عاريات حاول أن يجعلهن جميلات ولكن ضعفه فى الرسم اتاح له أن يتصرف كما يشاء فى مسخ المخلوقات . أغلق الدرجين فى نفاد صبر واراح ظهره على مسند المقعد يدير أن يطرد الهواء المحجوز

فى رئتيه ، ويلتقط الهواء النقى من جديد .

لكنه أحس بصلابة المقعد تتحالف مع برودة المعدن لتضايقه أكثر مما لو كانت منفردة ، فقام يتمشى ، يذرع ـ كعادته ـ أرض الحجرة جيئة وذهابا . فى الرواح يقابله الدولاب بزجاجه ، اللامع والحقن مرصوصة فى داخله ، كأنها جيش من الدمى التى يعبث بها الاطفال مرتين على الأكثر ثم يملونها بعد ذلك وأدوات الاسعاف السريع من صبغة يود وقطن وشاش ، وعلب البرشام وغيرها من الادوية . نظرة واحدة القاها على الدولاب فى رواحه جعلته يشعر بالملل من جديد ، استدار راجعا ليجد المكتب الذى هرب منه والكرسى الصلب ينتظره ببرودته وصلابته ، ونتيجة عليها صورة الملك بطربوش فاقع الاحمرار يكاد يميل من نشوة العظمة وجلال السلطان ، وصدره مزدحم بأوسمة ونياشين لا حصر لها . فى الايام القليلة الماضية التى قضاها فى هذه الحجرة منذ أن تسلم عمله الجديد تأمل صورة الملك ، وتأمل المكتب والدولاب والستارة المجاورة للباب حتى شبع . وكلما تأملها من جديد جاءه احساس الشبعان الذى يريد أن يتقيأ . أقبل على النافذة يتأمل ذبابة تصارع زجاج النافذة لتخرج ، ترى أمامها الافق فسيحا ، والطريق ممتدا ، ومع ذلك لا تستطيع التقدم فتكاد تجن وتسرف فى الطنين ، فكر فى أن يفتح زجاج النافذة ويطلق صراحها وينقذها من عذاب الحيرة وبدلا من أن يطلب عبده التومرجى ليقوم بهذه المهمة برز أمامه سؤال هام : ما الذى أغرى هذه الذبابة بدخول الاماكن النظيفة ، انها تولد فى الطين ، فلماذا تعيش وتموت أيضا فى الطين . عدل عن فكرة اطلاق سراحها ، وعاد الى مكتبه وهو يبتسم ويتصور انه قام بعمل ما ، وهمس وهو يجلس : « تستاهل » وراح يستمع الى الطنين كأنه هو سيمفونية رائعة ، ويراقب صراع الذبابة مع خداع اللوح الزجاجى ، ويضحك بصوت عال ، ويهز ساقيه فى حركات رتيبة متشابهة ، دون أن يعرف على وجه التحديد هل هذا التصرف راجع الى التشفى فى الذبابة ، أم أنه يريد به بعث الدفء فى قدميه الباردتين أخرج من جيبه خطابا وصل اليه أمس من أحد أصدقائه ، وأخذ يتسلى بقضم جوانب الظرف وقراءة ما عليه من عنوان : « الدكتور أحمد فؤاد » . طبيب مركز البلينا ـ وجه قبلى ـ قطع عليه القراءة ، أو التسلية بمعنى أصح ، دخول عبده التومرجى بعد أن طرق الباب ووقف بجانب الستارة ، صامتا لا يتكلم وهو متشاغل عنه بقراءة الخطاب ، وأخيرا صاح فيه صوتا أقرب الى الامر دون أن ينظر اليه :

ـ عايز ايه ...

ولم يفاجأ عبده باللهجة الآمرة المتعالية . لقد عاش حياته يسمعها عشرات المرات كل يوم ، حتى صار يألفها ويعتاد عليها ، لكنه لاحظ أن الدكتور الجديد ، أكثر شدة عن سابقيه الذين مروا عليه فى المركز .

ـ يا افندم النهاردة يوم الكشف .. يوم الكشف على الـ ...

وفكر عبده فى كلمة يقولها ، تقوم مقام الحقيقة وفى نفس الوقت لا تجرح شعور الدكتور الجديد . لم يسعفه لسانه ، فاحتار و « تلجلج » ولم يجد شيئا يخرجه من هذا المأزق سوى « الرخص » التى جمعها منهن ، قدمها للدكتور الذى راح يتأملها فى عدم مبالاة

يؤكد ذلك تشاغله فى قضم جوانب الظرف حتى الآن ، وهز قدميه المستمر ومع أنه توقف عن ذلك كله وأندمج فى تأمل الرخص الا أن الكلمات خرجت من فمه فى تكاسل :

– طيب خليهم يدخلوا بالترتيب ·· واحدة واحدة واحدة واحدة ··

أسرع عبده ينفذ الامر وابتسم الدكتور أحمد وهو يفرك يديه فى راحة بعد أن وضع خطاب صديقه فى جيبه · أخيرا وجد ما يسليه، ولاقرف الذبابة وطنينها المزعج، ولا تعب التمشية ولارقابة منظر محتويات الحجرة ، الدولاب ، والمكتب ، وصورة الملك · قلب الرخص بين يديه يتأمل صور صاحباتها فى تقزز ، ويسأل نفسه فى دهشة : هل يمكن لهذه الاشكال القذرة أن تثير رغبة الرجال ، أى رجال، ولو كانوا من الفلاحين ؟ لكنه توقف عند صورة واحدة منهن ، جعلته يسخر من نفسه بعض الشيء· ويلومها لانها وجهت اليه مثل هذا السؤال ويتحداها أن تتأمل معه هذه الصورة حتى لا تتسرع مرة أخرى فى الحكم · أخذ يعيد ترتيب الرخص ولم ينس أن يحتفظ بواحدة فى النهاية ·

وكان قد بدأ يحس ضياع السأم نسبيا ، ويحلم بشيء يشغله عما هو فيه من ضيق ، فالنساء وان كن أكثر شكاية وتوجعا من الرجال ، عندما يدخلن الى الطبيب ، الا أن حديثهن لا يخلو من تسلية وقد كان فى حاجة من يسليه · الآن فقط وبهذه المناسبة ، تذكر تصرفاته مع هذا الصنف من النساء عندما كان فى سنة الامتياز بمستشفى القصر العينى كان يبدى لهن احتقارا لا حد له، أحيانا يتهكم عليهن فى ازدراء وأحيانا أخرى يدق المكتب بقبضة يده ويصرخ بصوت عال لمجرد أن واحدة منهن اقتربت منه أكثر من اللازم ، كان يعتبرهن ذبابا يتوالد فى البرك ويحبو على أكوام الزبالة ليزعج الناس بطنينه ، وما زال على رأيه حتى الآن ، ولم يحاول ولو مرة واحدة أن يعرف الظروف التى دفعتهن الى هذا الطريق ورغم كل هذا فقد كان يحس بالندم فى أوقات كثيرة على تصرفاته معهن ، ولم ينم ليلة كاملة فى سنة الامتياز وهو يفكر فى ذلك ·· وفى الصباح حاول أن يعرف من أصدقائه معلومات عنهن · وفى النهاية تأكد انهن مخلوقات ضعيفة متخاذلة لا تستحق الاحترام ··

تحرك الباب ، وحدثت ضجة خلف الستارة ، ثم عاد الى الانغلاق ·

وتقدمت الحالة الاولى ، تترنح فى مشيتها كأنها واقعة تحت تأثير مخدر ، تقدمت حتى كادت تلامس المكتب فأشار اليها بالابتعاد ·

القى عليها نظرة سريعة ، جمعت مع كل ذلك الاذدراء الذى يبديه لهن ، ثم وقع على الرخصة وتركها تنصرف ·

كان يعلم مقدما أنها مريضة بأكثر من مرض ، ولكن لماذا يتعب نفسه ويرهق أعصابه فى معالجة هذا الصنف القذر ، لقد اختار هذا الطريق لنفسه ، فلا أقل من أن يموت ، كما عاش ، فى الطين لا أقل من أن يريح الناس منه ·

وتكرر هذا المشهد ثلاثين مرة· تدخل الواحدة منهن بجلباب أسود طويل تسبقها رائحة القرويات ، العينان زائغتان، تدوران فى الحجرة كأنما تبحثان عن شيء ضاع منهما ،أو تتوقعان هجوما من شخص ما ، والشفة السفلى دائما مرتخية متدلية الى أسفل ، كأنها لعبة أفسدها الاستعمال وتعطل الزمبرك

التى كان يشدها الى أعلى . وخلاف الوجه لا يظهر سوى الكتفين والكعبين .

شعر بالارهاق يمتص كل هدوءه ، وهو يستقبل الحالة الاخيرة وبدلا من السأم أخذ الصداع يتسلل الى رأسه وبدأت عيناه تدمعان ، كانما تحالفتا مع الصداع ضده ، والساعة ما زالت تتحرك ببطء نحو الحادية عشرة ، والوقت أمامه طويل يحمل معه متاعب ، سوف يقضيه فى سأم يضاعف من عدد الساعات ويشحنها بالعذاب ، سيعود للذبابة يراقبها وهى تصارع خداع اللوح الزجاجى ، ويعود أيضا لتأمل الدولاب الزجاجى ، ومكتبه بالخطوط الغامضة التى يرسمها بسبابته فوقه ، بالمحتويات القديمة التى تضمها ادراجه، وسيعود أيضا لتأمل صاحب الطربوش المائل والنياشين المتعددة . لا بأس من قضاء الوقت مع الحالة الاخيرة . دخلت عليه فراح يتأملها وهو متعب فى صمت، كانت هى صاحبة « الرخصة » التى احتفظ بها حتى النهاية ، ولكن ما أكثر ما تخطىء الصور عندما يخدعها الضوء وتخذلها براعة المصور ، وما أقساها عندما تحاول ـ من غير قصد ـ أن تمسخ الحقيقة كانت الحالة الاخيرة تقف على بعد، ويبدو أن ذكاءها هداها الى ذلك حتى لا تثير غضب الطبيب وقد شعر معها بالراحة التى افتقدها مع الباقيات، ومن ينظر اليها لأول وهلة يظن أنها تشابه زميلاتها ، وتكاد تكون (نسخة بالكربون) منهن ولكن اذا أمعن النظر وجد الاختلاف واضحا . جلبابها أسود طويل ، فيها من رائحة القرية عطر ازهارها البرية التى لم يقربها أحد ، عيناها مركزتان على المكتب فى تحدى ، وان كان بداخلهما شىء من الذلة والانكسار، شفتها السفلى مشدودة الى أعلى تزمها حينا وتضغط عليها بأسنانها حينا آخر .

قال لها ـ محاولا تبديد الوقت بعد أن تنبه الى أن يتأملها ويطيل النظر اليها :

ـ اسمك ايه .

فاختلجت شفتاها فى رعشة وضاعت « الزمة » التى كانت تربطهما ، وتدلت الشفة السفلى فى استرخاء ، وراح هو يراقب كل ذلك بنظارته المحتقرة المتعالية، ويتنظر الرد ، ويترقب سماعه منها ـ كان يعرف مقدما أن اسمها « ناعسة » وانها أجملهن وأكثرهن شهرة منذ جاء الى الصعيد واستلم العمل، وهو يسمع عنها يبدو أن هذا هو سبب دلالها وايثارها الصمت ، ولكن مع من ؟ ضاق ذرعا بها ، وتجمع الارهاق والصداع فى قبضة يده وهى تهوى ازلى المكتب :

ـ باقول اسمك ايه ...

ورأى الاختلاجة هذه المرة فى عينيها، وقبل هذه اللحظة لم يكن يتوقع أن شيئا ما سيحدث بهذه الصورة وعلى هذه الدرجة من الاهمية ، وليس فى طاقة الانسان أن يتنبأ فى مثل هذا الموقف حتى لو رأى بنفسه القدرة على ذلك لما توقع ما حدث ، هناك كائنات حية كان يعتقد أنها اعتادت على الالم حتى أصبحت لا تحس به، أما الآن فقد تغير عنده هذا الاعتقاد ، وانقلبت مفهوماته القديمة رأسا على عقب، بعد أن رأى هذه الاختلاجة فى عينيها، كانت قد اكثرت من «الكحل» فيهما ، فسال جزء منه مع دموعها وأفسد زينتها ، وفى دقيقة كانت صفحة وجهها قد تغيرت : سار خطان من الدموع فى طريق متعرج انتهى بها الى أسفل الذقن حيث تم بينهما اللقاء وبدأت تشهق مرات سريعة متوالية ، وسمعها بعد ذلك تبكى

بصوت مسموع، كان واضحا انها كتمت شعورها بطريقة غير متوقعة ·

وقبل أن يتمالك نفسه لمواجهة الموقف، فوجىء بعبده التمورجى يهجم عليها ويحاول انتزاعها من مكانها والقائها فى الخارج ، مفاجأة لا تقل فى غرابتها عن الاولى ·

لم يره وهو يفتح الباب ويدخل ولو كان رآه فعلا لما استطاع أن يمنعه ، لان الامور تمت بسرعة · يبدو أنه سمع بكاءها فقام بهذا التصرف الذى ظن أنه من واجبه ، تشبثت «ناعسة» بمكانها ، فصفعها عبده، وهى تقاومه بكل ماتملك المرأة من أسلحة، والدكتور أحمد يقاوم رغبة قوية فى دخيلة نفسه ، أوشكت على الظهور ، ويسأل نفسه هل هى الدوافع القديمة التى كانت تثور فى داخله ، عندما كان بمستشفى قصر العينى ؟ والا فما سر احساساته بتأنيب الضمير لانه تسبب فى كل هذا ·

حاول أن يبدو هادئا ، وهو يتكلم ، حتى لا يلاحظ عليه عبده أى شىء :

ـ سيبها يا عبده ···· واخرج انت بره ····

فأطاع الامر وأغلق خلفه الباب وهو يحاول أن يخفى نظرة استغراب · واجهشت هى بالبكاء من جديد ، ولكن فى صوت منخفض فى هذه المرة ···· خافت أن يهجم عليها عبده للمرة الثانية

ولم يكن هذا فى صالح الدكتور بأى حال ، فهو وان كان يتأثر ببكاء النساء عامة، الا أن البكاء الخافت له عنده وقع خاص ، لا يكفى باذابة القشرة المتعالية من فوق عينيه فقط ، وانما يهدم كل الاستحكامات التى يرتكز اليها فى تصرفاته· لهذا فلم يكن غريبا أن يقوم من مكانه ويتجه الى الدولاب ، ويخرج منه أدوات الاسعاف ··· ليواجه بها خطا رفيعا من الدم كان قد بدأ يتدلى من فمها ويختلط مع الدموع ·

ـ حكم الزمان يا ياسعادة لفندى ··

اهتز كيانه رغما منه وهو يسمعها تنطق بهذه الجملة ، ولكنه استمر فى عمله ، يمسح آثار الدم من فمها ، « والكحل » من عينيها وخديها ، وبدت له فى النهاية أجمل بكثير عن ذى قبل ، كصفاء المرضى وهم فى دور النقاهة بعد زوال المرض · أخذ يعاملها بالفعل كما لو كانت مريضة ، ربت على كتفيها وهو يقول فى رقة :

ـ مالكيش شغلانة غير دى يا « ناعسة » ··· ؟

سكتت فترة قصيرة من الزمن فترة ما عاد بعدها يغضب أو يثور لو طالت حتى الى ساعة ، ظن خلالها أنها عادت الى سابق عهدها ، الى الصمت الغامض الحزين ، ولكن فمها تحرك بعد برهة ، وخرج منه صوت متقطع، يأتى عادة بعد البكاء ، كلماته متعثرة ممزقة كأنما تفترسها نوازع الكبرياء ···

ـ ياما اشتغلت يا بيه ، من صغرى عايشة فى نار ، وكل يوم فى الغيط ، أشيل سبخ وتراب ، وتوبى مترقع ، أبوى خدوه فى التار وأخوى بقى يعذبنى، هربت ع البندر ، كان بدى أعيش فى أمان ، وأخاصم البتاو ، وألبس حرير يضوى ، وخفت أموت م الجوع ·· »

وقاطعها الدكتور أحمد وهو يطلب منها أن تجلس على الكرسى وتهدىء نفسها حتى يستطيع الكشف عليها ، وضع السماعة على صدرها ، دقات القلب غير منتظمة ، اظافر يديها بيضاء · رجح أن تكون مصابة بالدياتن الى جانب كونها قطعا مصابة بمرض تناسلى ·